

البحث العاشر

موسى وفتاه

والحوت الذي اتخذ سبيله في البحر عجبا

ما قاله المفسرون في ذلك

قال المفسرون في معنى هذه الآية ما ملخصه: أن موسى عليه السلام لما طلب من ربه أن يريه الخضر عليه السلام في مكان بمجمع البحرين ذهب هو وفتاه إليه حتى بلغا قريبا من هذا الموضع، وأويا إلى صخرة ليستريحا، وكان معهما لأجل غداتهما حوت مملح وهو المسمى الآن فسيخا، فانقلب هذا الحوت حيا بعد أن كان ميتا، وسار إلى البحر حتى وصله وغطس في الماء واختفى عنهما فيه فلما جاوزا هذا المحل قال موسى لفتاه أتنا غدا هنا وهو الحوت المملح، قال الفتى إني حينما كنا عند الصخرة فإني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحر عجبا.

وقد اختلف المفسرون في سبب انقلاب هذا الحوت الميت حيا فقال بعضهم أن الفتى الذي هو يوشع كان يغسل الحوت في البحر لأنه كان مملحا فلما أصابه ماء البحر انقلب حيا وطف من الماء. وقال بعضهم أن يوشع كان قد توشع في مكان قريب من الحوت فأصابه رشاش ماء وضوئه فأحياه ووثب إلي البحر. وقال بعضهم أنه قد انفجر هناك عين ماء الجنة ووصلت قطرات من ماء تلك العين إلى الحوت فأحيتته وهرب إلى البحر. وقال بعضهم أن الحوت كان في المكمل ميتا فأحياه الله واتخذ سبيله في البحر عجبا قالوا ووجه العجب هو انقلابه حيا، وسيره إلى البحر وإلقاء نفسه على غفلة منها أي من موسى وفتاه.

أقول هذا حاصل ما قاله المفسرون في معنى هذه الآية ولكنهم لم يأتوا بأي حديث عن الرسول ولا بأي دليل من القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو غيرها تدل على أن هذا الحوت كان ميتا ثم ثار حيا وإنما هي أفهام وأقوال لا مستند لها أصلا إلا ما فهموه من التعبير بقوله عجبا في آية (واتخذ سبيله في البحر عجبا) وهذا لا يدل على أنه كان ميتا كما سيأتي بيانه.

ما أفهمه في هذا الموضوع وأدلتي عليه

أنني أقول يحتمل احتمالا قريبا أن موسى وفتاه حينما أويا على الصخرة عند مجمع البحرين ليستريحا قد اصطاد في ذلك الوقت حوتا من البحر ووضعاه بجانبهما الأرض أو وضعاه في ماء بإناء أو نقرة من الصخر ليبقى حيا حتى يأتي وقت الغداء فيشوياه مثلا ويتغديا به ولكنهما ما لبثا حتى نسيا هذا الحوت وغفلا عنه فقفز من موضعه وسار في طريقه إلى البحر حتى وصله وانغمس فيه واختفى. ووجه العجب في ذلك أن هذا الحوت قد مشى وقفز مسافة في البر على غير ماء وهو حي مدة ليس من المعتاد أن يقفز أو يعيش فيها مثله من الحيتان بدون ماء، ولكن هذا الحوت قد عاش مدة قد تكون طويلة بلا ماء وسار مسافة قد تكون بعيدة في البر حتى وصل إلى البحر وانغمس فيه وهذا وجه التعبير بلفظ (عجبا) في قوله تعالى (واتخذ سبيله في البحر عجبا). أي حيث أنني نسيت الحوت وغفلت عنه ولم أذكره ولم أراقبه فقد اتخذ سبيله في البحر عجبا على نحو ما بيناه.

هذا وجه التعبير في الآية بلفظ (عجبا) الذي فهم منه المفسرون أن هذا الحوت قد كان ميتا ومملحا ثم صار حيا. واحتاروا في أسباب حياته بعد موته. هل كان ذلك بسبب إصابته برشاش ماء وضوء يوشع فأحياه، أو بسبب إصابته بقطرات من ماء عين في الجنة انفجرت هناك لهذا الغرض فأحيتته. على غير ذلك من الأقوال المتقدمة التي لا مستند لهمهم في شيء منها. ومما يبعد قول المفسرين من أن الحوت قد كان ميتا مملحا ويؤيد قولنا من أنه كان حيا أمران مأخوذان من نفس هذه الآية:

1. أن هذه الآية قد جعلت اتخاذ الحوت سبيله في البحر سربا مبنيا على نسيانها له، وغفلتها عنه، وعدم مراقبتها لهن وهذا يشعر بأن الحوت قد كان حيا، وإلا فما هو وجه ترتب ذهابه على البحر، واتخاذ سبيله إليه على نسيانها وغفلتها عنه مع علمهم بأنه ميت مملح لا يذهب إلى البحر ولو غفلا عنه ونسيها.
2. إن موسى والفتى بعد أن جاوزا الصخرة بمسافة وبعد أن حطا رحالهما في موضع آخر وأرادا أن يتغديا قال الفتى إني نسيت الحوت وغفلت عنه فاتخذ سبيله في البحر عجبا. فهذا القول من الفتى يدل بصراحة على أنه كان عالما بذهاب الحوت إلى البحر وهو هناك قبل أن ينتقل من موضعه، وإلا فكيف يقول لموسى أن الحوت قد ذهب إلى البحر مع أنه

لم يرجع بعد إلى موضع الحوت حتى يعرف ماذا جرى له. هل هو باق في موضعه، أم ذهب إلى البحر حتى يخبر موسى بذلك، ولو كان الفتى عالما قبل مجاوزتهما ذلك الموضع بأن الحوت قد انقلب حيا ما يقول المفسرون لما تأخر الفتى عن إخبار موسى بهذا الأمر العجيب قبل قيامهما من ذلك الموضع، أو على الأقل وهما مسافران في الطريق معا لأن السافرين يتحدثون في الطريق حتى عن الأمور النافهة لتقطيع الطريق فضلا عن الأمور الغريبة المهمة كهذه الحادثة التي لو وقعت حقيقة لحدث الفتى بها موسى من وقت وقوعها لشدة غرابتها. وعليه فعدم تحدّثه عنها، وعدم أخبار موسى بها دليل على أنها ليست من الأمور الخارقة للعادة أو المستغربة جدا التي تبقى في الذاكرة لشدة غرابتها، بل هي من الأمور التي قد تحصل عادة وإن كانت نادرة إذ أن قفز الحوت بعد اصطیاده من موضعه الذي كان فيه ولو كان بعيدا عن البحر وإن كان أمرا غريبا في حد ذاته، غلا أنه ليس من الغرابة بحيث لا ينسأه الإنسان كحادثة انقلابه حيا وهو ميت مملح وذهابه إلى البحر. على أن لفظ (عجبا) ليس من مقوله الله بل الذي من مقوله هو قوله في أول الآية (فاتخذ سبيله في البحر سربا) أي تسرب إلى البحر تسربا ولم يقل تسرب عجبا فالذي عبر بلفظ العجب إنما هو الفتى وهذا بناء على تصوّره إن ذلك عجيب وإن كان قد لا يكون عجيبا في ذاته.

بالجملة فإنني أرى أن أقرب ما تعطيه هذه الآية من المعنى أن موسى عليه السلام حينما طلب من الفتى الغداء وكان في ظنه أن الحوت الذي كانا قد اصطاداه من البحر وهما عند الصخرة هو الغداء أو من جملة الغداء اعتذر له الفتى عن تقديم هذا الحوت وأخبره بأنه كان قد نسيه وغفل عنه بعد اصطیاده، وأنه اتخذ سبيله في البحر عجبا حيث أنه ما كان يظن أن الحوت بعد إخرجه من البحر وإبعاده عنه بمسافة كبيرة يمكنه أن يرجع إليه حيا.

وبتفسيرنا هذا تكون الآية ظاهرة واضحة لا تحتاج إلى تأويل أي كلمة فيها ولكن المفسرين بالنظر لكونهم صمموا على أن الحوت كان ميتا وانقلب حيا واضطروا إلى أن يبينوا كيفية النسيان في الآية بما نصه كما في الفخر الرازي:

قال (والمراد من قوله نسيا حوتهما أنهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول إلى المطلوب. فإن قيل أن انقلاب السمكة المألحة حية حالة عجيبة فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلا على الوصول إلى المطلوب فكيف يعقل حصول النسيان في هذا المعنى. فأجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى كثيرا فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم فجاز حصول النسيان.

وعندي فيه جواب آخر وهو أن موسى لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحب هذا العلم الضروري تنبيهها لموسى عليه السلام على أن هذا العلم لا يحصل إلا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر) انتهى كلام الرازي بالحرف.

ومن التأمل في معنى هذه الآية يظهر لك ارتباك المفسرين وبعد تفسيرهم عن مجرى الآية الطبيعي، كما يظهر لك بساطة تفسيرنا وقربه من معناها الحقيقي ومجراها الطبيعي والله أعلم بمراده.